مجلة المعيار ISSN :1112-4377
المجلد:27 العدد: 5 (رت 74) السنة: 2023

حضور الفلسفة الحيوية البرغسونية في العلم المعاصر

الميتافيزيقا التجريبية

The Presence of the Bergsonian Vital Philosophy in Contemporary Science - Experimental Metaphysics-

خالد أودينة[1]

بجامعة 20 أوث سكيكدة

k.oudina@univ-skikda.dz

تاريخ الوصول 2023/04/19 القبول 2023/07/19 النشر على الخط 2023/09/15
Received 19/04/2023 Accepted 19/07/2023 Published online 15/09/2023

ملخص:

يعالج هذا البحث قضية جد مهمة تتعلق بإشكالية العلاقة بين الفلسفة والعلم، وتحديدا حضور الفلسفة الحيوية البرغسونية في العلم المعاصر، التي نشأت في ظروف اتسمت بسطوع النزعات الآلية المادية والعلمية التي تزعمها كل من ديكارت، أوغست كونت" و "كلود برنار"...إلخ، الذين حاولوا نقد وتجاوز كل فهم وتأويل فلسفي لاهوتي وميتافيزيقي. حيث حاول برغسون الرد على الفلسفة التقليدية الغائية التي تؤسس للثبات مناديا بفلسفة حيوية ترفض كل فكر سكوني سواءً كان من طبيعة فلسفية أو علمية إختزالية، محاولا بذلك إحداث ثورة منهجية في فهم حقيقة الحي والحياة، ومنه العمل على إعادة الوصل بين العلم العقلي والنظر الفلسفي، لأن وجودهما في ظل احترام طبيعة مواضيعهما هو في حد ذاته طريق للكشف عن جوهر الوجود وحركيته، وهو ما اتضح في ما سماه بالميتافيزيقا التجريبية التي تجعل من الميتافيزيقا علما تجريبيا قادرا على التعامل مع المشكلات الكبرى للفلسفة على أساس الحقائق العلمية، لأن الكسوف الجزئي للميتافيزيقا أساسه هو صعوبة تواصل الفلسفة أنذاك مع العلم، لذلك فإن فلسفته تشهد على قمة الربط والتوليف بين الفلسفة والعلم في عدة مجالات فلسفية علمية معاصرة، كنظرية الخلايا العصبية المرآتية.

الكلمات المفتاحية: الحيوية، البرغسونية، العصبية، الدماغ، العلم.

Abstract :

This research deals with a very important issue related to the problematic relationship between philosophy and science, specifically the presence of the vital Bergsonian philosophy in contemporary science, which arose in conditions characterized by the brightness of the mechanistic, materialistic and scientific tendencies led by Descartes, Auguste Comte and Claude Bernard...etc. Those who tried to criticize and transcend all philosophical, theological and metaphysical understanding and interpretation, where he tried to respond to the teleological traditional philosophy that establishes steadfastness, calling for a vital philosophy that rejects all static thought, whether philosophical or scientifically reductive, trying to bring about a systematic revolution in understanding the reality of life and life, and working to form a link between Rational science and philosophical consideration, because their existence in light of respecting the nature of their subjects is in itself a way to reveal the essence of existence and its movement, which is evident in what he called experimental metaphysics, which makes metaphysics an experimental science capable of dealing with the major problems of philosophy on the basis of scientific facts, because The partial eclipse of metaphysics is based on the difficulty of philosophy at that time communicating with science, so its philosophy testifies to the summit of linking and synthesizing philosophy and science in several contemporary scientific philosophical fields, such as the theory of neurons for a woman.

Keywords: *vitality; bergsonian; nervousness; brain; science.*

[1] المؤلف المراسل: خالد أودينة البريد الإلكتروني:**k.oudina@univ-skikda.dz**

مقدمة:

منذ منتصف القرن العشرين أصبحت العلوم الحيوية من أهم العلوم التجريبية التي لفتت أنظار العلماء والفلاسفة، ومرد ذلك هو الآثار البالغة التي أحدثتها على مستوى حياة الإنسان وحضارته من الوجهة العلمية المادية والفلسفية الروحية، نتيجة ما شهده نهاية القرن العشرين (ق20) من ترييض للدراسات الحيوية، فأضحت الميكانيكا بشكل ما عقيدة وايديولوجيا وإطار فهم وتفسير للحياة، وهذا ما تجلى في النتائج التي أفرزتها التقنيات الحيوية، أو ما يعرف بالبيوتكنولوجيا التي أسفرت عن نتائج أبرزها تغييب الدراسات الفلسفية الميتافيزيقية، والحط من قيمتها في ظل هذا التطور العلمي المبهر.

إلا أن الدراسات الأبستيمية المعاصرة كشفت عن نظرة جديدة أساسها إعادة النظر في طرق فهم الحي والحياة وفق مناهج ومقولات فلسفية روحانية، وهو ما تجلى في الكثير من البحوث الفلسفية المعاصرة، وتحديدا ما نجده عند أحد أهم الفلاسفة الفرنسيين في القرن العشرين، الفيلسوف الحيوي الروحاني "هنري برغسون" Henri Bergson (1859-1941) الذي يرجع الفضل إليه في تغيير طريقة ومنهجية النظر إلى الحياة والتطور الحيوي، من منطلق أن الحياة خصوصيات حيوية متميزة عن الجماد، وهو ما أعاد إحياء النزعة الحيوية بمميزاتها الجديدة، وبالتالي أسس لنزعة حيوية حداثية ومعاصرة متجاوزة للأنساق الكلاسيكية المغلقة، سواءا كانت فلسفية غائية سينمائية، أو إتجاهات آلية اختزالية حديثة، وبالتالي قام برد الاعتبار إلى النزعة الحيوية الروحانية في ميدان علوم الحياة في الوقت الذي أصبح ينظر إليها بعض كبار البيولوجيين بعين الازدراء كميتافيزيقا لا جدوى منها، الأمر الذي أعاد للفلسفة حيويتها وقيمتها في عصر العلم والتقنية، وأسس لما يسمى بالميتافيزيقا التجريبية التي حاول من خلال عمق نظرته الروحانية إعادة النظر في طبيعة العلاقة بين الفلسفة والعلم، الأمر الذي أحدث وصلة قوية بين العلم بطابعه العملي والفلسفة بنظرتها الحيوية الميتافيزيقية، وهو ما يعكس لنا قيمة الفلسفة البرغسونية، والسؤال المطروح:ما تجليات حضور الفلسفة البرغسونية في العلم المعاصر؟

1. تعريف الفلسفة الحيوية البرغسونية:

ورد مصطلح الحيوية vitalisme في الموسوعة الفرنسية، بعدة معاني، فنجدها عند "برغسون" مختلفة عن الفلسفة الاحيائية Animisme، أو الأرواحية، فهي نظرية ترى أن النفس الواحدة هي أساس الفكر والحياة العضوية، وتطلق بوجه عام على عقيدة ""جورج أرنست ستال"George Ernest Stahl (1660. 1734)"، أو هي النظرية . الإحيائية البدائية . التي تعتقد بوجود كائنات من طبيعة روحية[1]، وبالتالي فالجسم ليس ميكانزيما فيزيوكيميائيا، بل هو عضوية تتعاون كل أجزاؤها من أجل هدف مشترك عن طريق حركات لامادية بين الروح والجسد، لأن ما نشاهده في العضوية من ظواهر الحياة ليست هي إلا ظواهر روحية، وأن السبب الأول لأي مرض هو روحي بالدرجة الأولى، والأعضاء ما هي إلا بنيات تتحرك بقوة الروح، وبدون هذه القوة المادة الحية تدخل في حالة تحليل[2].

[1] Encyclopédia philosophique universelle- les notions philosophiques dictionnaire, volume dirigé par: Sylvan Auroux, publier sous la direction: d'André Jacobs, tome1, 1er édition, presses universitaires de France, 1990, p101.

[2] جميل صليبا، المعجم الفلسفي، ج1، ج2، دار الكتاب اللبناني، بيروت، لبنان، 1982، ص504.

وهو ما يمكن أن نلمسه في اصطلاح المحدثين بأن الحيوي هو المقوم للحياة والمتعلق بها، وتدل الحيوية أن في الموجود الحي قوة حيوية force vitale، لا يمكن ارجاعها إلى القوى المادية، ومنه الحيوي vitale يطلق على كل ما يختص بالحياة أو ما يكونها، أو على كل ما هو جوهري وذاتي للحياة، وشرط حتمي لاستمرارها، أي هو المنسوب الى الكائن الحي[1].

ونجدها في القرن الثامن عشر (ق18) عند الطبيب الفرنسي "جوزيف بارتيز"Paul-Joseph Barthez (1734-1806) الذي ينسب الظواهر الحيوية الى مبدأ حيوي مختلف عن القوى الفيزيوكيميائية وعن الروح المفكرة، مما أدى إلى تطور الحيوية إلى مذهب عن طريق مدرسة الطب بمونبولييه، وهو نفس ما ورد في موسوعة "لالاند" بمعناه الضيق، وهو المعنى المتداول في مدرسة مونبلييه، وبالأخص عند "بارتيز":" أنه كل مذهب يرى أن في كل فرد مبدأ حيويا مميزا للنفس المفكرة عن خصائص الاجسام الفيزيائية والكيمائية، ويعتبر مدبرا لظواهر الحياة"[2].

كما تطلق على الحيوية المذاهب التي تقول أن جميع الأجسام متضمنة على الحياة، وقد تجلى معناها في فكر بعض الفرنسيين، وهم من أتباع "الفلسفة البرغسونية"، وتحديدا عند الفرنسي "جورج كونجلهم" الذي اعتبرها بمثابة نظرية بيولوجية أو فلسفة بيولوجية أو نظرية عقلانية لا تبنى على أسس ومبادئ ومقاييس عملية، وهي نظرة ابستيمولوجية للدراسات العلمية في مجال الحياة التي غيبت الدقة والموضوعية[3].

نتيجة لما سبق نجد أن الحيوية عند "برغسون" هي بمثابة اتجاه فلسفي يؤمن بالقيمة الحقة للحياة والعمل على تقديسها وحمايتها، وبالتالي فهو يتخذ موقفا معاديا لكل تجاوز لاأخلاقي للإيديولوجيات المادية، ومحاولة إعادة النظر في طريقة الاستعمالات غير العقلانية للتقنية في المجال البيولوجي[4]. أي الاعتراف ببساطة وأصالة الظواهر الحيوية، وضرورة التعامل معها كمنظومة من الوظائف العضوية الديناميكية التي لا تخضع لأسس عقلية ثابتة، بل مؤسسة على خصائص مختلفة أساسها التغير والديمومة، كسيل من الأحداث الزمانية الناتجة عن الدفعة الحيوية، التي تؤثر الحدس على العقل من أجل الاندماج في السيل الحيوي الزماني المتجدد[5].

لهذا نجد "هنري برغسون" من أبرز المناهضين للاتجاهات الميكانيكية في فهم الحياة، متخذا طريقة رومانسية روحانية حاول من خلالها أن يبحث عن كنهها وخصوصياتها الحيوية، وذلك من خلال محاولته التوحيد بين نظرية المعرفة والحياة بهدف وضع حد للكثير من المشاكل التي تعترض الفكر الإنساني، حيث طرح قضية المعرفة طرحا يتماشى وحقيقة الحياة وجوهرها، وبذلك عمل على الاستفادة من النتائج التي توصل إليها في دراساته للأحوال النفسية، البيولوجية والإجتماعية وسحبها على الحياة عموما. وهذا يعني أن الفلسفة البرغسونية لم تتأسس من فراغ، بل تبعا لنظرة إبستيمولوجية للفلسفات والعلوم الحيوية الموجودة آنذاك، وهذا ما يدفعنا للتساؤل: كيف كانت النظرة البرغسونية إلى الفلسفة الغائية والتفسير العلمي الإختزالي للكائن الحي؟

---

[1] نفسه، ص507.

[2] أندريه لالاند، موسوعة لالاند الفلسفية، المجلد الاول، تعريب، خليل احمد خليل، اشراف، أحمد عويدات، منشورات عويدات بيروت، باريس، ص ص1558- 1559.

[3] G. Canguilhem, la connaissance de la vie, vrin, Paris, 1975, p 83.

[4] جورج كونجلهم، دراسات في تاريخ العلوم وفلسفتها، ت، خليبل أحمد خليل، ص64.

[5] جون لويس، مدخل الى الفلسفة، ت، أنور عبد المالك، دار الحقيقة، بيروت، 1978، ص185.

2. التأسيس الإبستيمولوجي للفلسفة الحيوية البرغسونية:

أ. نقد النظرة الفلسفية الغائية:

لم يتبلور مفهوم الحيوية عند "برغسون إلا انطلاقا من عدة فلسفات سابقة نظرت إلى الكائن الحي وفق الأنساق والأسس التي تؤمن بها، حيث تجلت الحيوية في التقليد الفلسفي، وتحديدا في الفلسفة البيولوجية الغائية التي ترجع أصولها إلى " أفلاطون" " Platon" (427-347 ق.م) و" أرسطو " Aristote (384-322 ق.م) خصوصا، من خلال المفاهيم التي أسسها حول فكره فهم الكائنات الحية عن طريق تمييزها عن المادة الجامدة، حيث يلقبه دانتيه Danté بسيد العلماء [1].

حيث يؤكد أفلاطون أن النفس ليست بجسم، وإنما هي جوهر بسيط محرك للبدن،أي أنها وجدت قبل اتصالها بالجسم، بحيث تعمل على إدارة وتسيير الجسد الإنساني وتتحكم في أعضائه.[2] أما " أرسطو " فيعد أبرز رواد المذهب الغائي بلا منازع، فقد قال بالغائية سواء في الطبيعة الجامدة أو الحية، لأن الطبيعة تخضع إلى نظام منسحم يتجه نحو هدف محدد، من أجل تحقيق صورها الكاملة[3]، وفي هذا يقول: "أن الطبيعة من الأسباب التي إنما تفعل من أجل الشيء"[4]. وهذا يعني أن "أرسطو" ينظر إلى التفسير الغائي على أنه قوام عالم الحياة، وهو تفسير التركيب المادي على أساس وظيفته، فالطبيعة وهي الصانع الكامل لا تنفعل عبثا، لأن:" أكثر الأفعال اتفاقا مع الطبيعة في حالة أي كائن حي قد بلغ نموه الطبيعي... هو إنتاجه كائنا آخر شبيها به، فحيوان ينتج حيوانا، ونبات ينتج نباتا، حتى يتمكن بقدر ما تسمح طبيعته من أن يشارك فيما هو أبدي وإلهي، ذلك هو الهدف الذي تسعى نحوه كل الأشياء، والذي من أجله تفعل كل ما تتيحه لها طبائعها "[5].

إلا أن هذه الفلسفة قد لاقت نقدا من طرف الكثير من الفلاسفة ومن بينهم برغسون، حيث نجد فلسفته الحيوية ليست كفلسفة أفلاطون في تصوره للعقل الإنساني، التي اقتصرت مهمة الفلسفة عنده على مجرد التسجيل وصياغة الأحكام النهائية المحولة إليها، كأنها محكمة، لأن الحقيقة عند برغسون ليست مجرد تسجيل ووصف لمظهر الشيء من دون أن تصدر حكما سابقا على طبيعته العميقة وتنظيمه، ولا يمكنك أن تعزل صورته عن مادته. ولهذا يقف ضد النزعة الغائية الكلاسيكية التي تكرس للفردية والثبات والألية الوثوقية، ويؤكد أن هذه الغائية لا تتماشى وحقيقة الحياة، لأن الحياة مختلفة ومتغيرة، ولا يمكن أن تكون متشابهة في كل حالاتها، وهذا ما يسمح لنا بالقول أن الحياة تتجلى من خلال الحركة والتغير، وبهذا فإن الفلسفة عند برغسون:" لا يمكنها أن تسلم ولا ينبغي لها ذلك التسليم بالعلاقة التي يقررها المذهب العقلي بين نظرية المعرفة ونظرية الشيء المعروف، أي بين الميتافيزيقا والعلم"[6].

إذن فالغائية فكرة وهمية ابتدعها العقل البشري، لذلك فهي بعيدة عن التفكير العلمي الموضوعي، لأنها فكرة ميتافيزيقية اعتقد بها الإنسان دون أدلة واقعية ملموسة، وهو منطوق النظرة العلمية التي تستبعد كل تفكير فلسفي، فما هو موقفهم؟ وكيف كانت القراءة البرغسونية للنظرة العلمية الآلية؟

---

[1] Dictionnaire Hachette Encyclopédique, édition, 2001, p1384.

[2] يوحنا قمير: أصول الفلسفة العربية، ط2، منشورات المطبعة الكاثوليكية، بيروت، لبنان، 1967، ص 71.

[3] أحمد أمين وزكي نجيب محمود: قصة الفلسفة اليونانية، ط4، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة،1958، ص 289.

[4] أرسطو طاليس:الطبيعة، تحقيق عبد الرحمن بدوي، ج1، الدار القومية للطباعة والنشر، القاهرة، 1974، ص 142.

[5] فؤاد كامل وآخرون: الموسوعة الفلسفية المختصرة، دار القلم بيروت، دار القلم، بيروت،لبنان،ص ص46-47

[6] H. Bergson, l'Evolution créatrice, Quadrige, P.U.F, Paris, 1994.

ب . نقد التفسير العلمي للحياة "le mécanisme":

قد ظهرت الفلسفة الحيوية البرغسونية إنطلاقا من نقد النظرة الميكانيكية ، عند الفيلسوف الرياضي " ديكارت " " René Descartes" (1596-1650)، التي بنيت على أسس مادية، معارضة كل ما هو حيوي روحاني، حيث اعتبر أن الطبيعة مادية، وأن كل كائن حي ما هو إلا ذرة ميكانيكية تحيا عن طريق حرارة داخلية، وهو ما تجلى في تعريف الآلية" عند " أندري لالاند " في قاموسه الفلسفي بقوله: "بأنها نظرية فلسفية تقول بأن صنفا من الوقائع...يمكن ردها إلى نظام وتحديدات – ميكانيكية.... وهي مضادة للديناميكية والغائية والحيوية "[1]. لهذا فقد تحددت معالم المذهب الميكانيكي في نسق نظري قوامه مفاهيم بسيطة ترد إليها طبيعة العالم وحالاته وخواصه، وهي مفاهيم المادة والحركة والشكل[2].

وقد إتضحت نظرته في مفهوم الحيوان الآلي في تشبيه "ديكارت" الحياة بالألة، فشبه الشجرة في انتاجها للفاكهة بالساعة التي تعطينا الوقت بدورانها، فبالرغم من أن "برغسون" يعتبر "ديكارت" مرجعا أساسيا في الفلسفة الحديثة، إلا أنه عمل على نقدها، إذ أن كل شيء عنده يتم بصورة آلية، تبعا لقوانين الحركة، فحتى الجسم الإنساني تفسره قوانين الآلية الشاملة، رغم أن في الإنسان جانبا لا يخضع لتلك لقوانين، ومرد ذلك هو أنه أكثر تعقيدا وأكمل صنعا، ومن هنا نوه إلى عدم اعتبار الإنسان في البداية على أنه نفس أو عقل أو روح على حدا، بل تخيله جسما عمل من مادة العالم ذاته، وخاضعا لقوانين الامتداد وحركاته، وتصور النفس على حدا، وأخيرا الإنسان الكامل الذي تمثله على أنه جسم ونفس متحدان فيما بينهما[3].

كما تجلت الدراسات الحيوية على يد الكثير من الفلاسفة والعلماء، أمثال: " كلود برنار" Claude Bernard (1813-1878.) الذي كان له إهتمام بدراسة وظائف أعضاء الكائن الحي، وقد عمل على مناقشة التيار الحيوي، وأراد من وراء ذلك إثبات أنه لا توجد قوة حيوية على مستوى الكائنات الحية، من أجل تقويض المبدأ الذي يستند عليه المذهب الحيوي القائم على الغائية، أي الاعتقاد بوجود قوة حيوية تسري في الأحياء وهي أساس بروز ظواهره الحيوية، وهذه القوة متصارعة مع القوانين الفيزيوكيميائية، وتشكل عائقا أمام التجريب، لأنها تجعل الجسد كلا منظما ومعقدا لا يستطيع العالم لمسه دون تطيم خاصية الحياة[4].

وقد حاول "كلود برنار" تأكيد أن استعمال كلمة حيوية لا تستدعي أبدا إدخال بأي شكل من الأشكال أي مبدأ الحيوي principe vitale، ولا تتطلب كذلك الانطلاق من تعريف للحياة كجوهر ميتافيزيقي[5]، لأن التسليم بصحة النظرة الحيوية عنده سيؤدي إلى عدم وجود حتمية، وبهذا نكون قد نفينا إمكانية قيام علم الحياة، ليؤكد فيما بعد أن علم الحياة لا يمكن دراسته إلا بنفس المبادئ والأسس التي تطبق في العلوم الفيزيوكيميائية، ويتجلى ذلك من خلال قوله: "أن أسس علم الحياة هي نفس أسس علوم المادة الجامدة، ولا يوجد فرق بين مبادئ علم الحياة، والعلوم الفيزيوكيمئية"[6].

---

[1] أندري لالاند: موسوعة لالاند الفلسفية، ج2، (H.Q) ط2، منشورات عويدات، بيروت، لبنان، 2001،ص 780.

[2] السيد نفادي:العلم والنظرة إلى العالم، الإسكندرية، 1994، ص 67.

[3] نجيب بلدي: نوابغ الفكر الغربي " ديكارت "، ط2، دار المعارف، مصر، 1968، ص 142.

[4] كارل جي همبل، فلسفة العلوم الطبيعية، ت: تامر عبد الجبار المطلبي، مراجعة: غالب فاضل، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، ص148.

[5] Dictionnaire de l'éthique et de la philosophie morale, publié sous la direction de Monique canto-sperber, presses universitaires de France, paris, 1996, p1695.

[6] C. Bernard, introduction à l'étude de la médecine expérimentale, 4éme edition, librairie de la grave, 313

ومنه فإن هذا المذهب يؤكد أن الدراسات الحيوية لا تقوم إلا على دعائم مخالفة تماما لتلك النظرة الميتافيزيقية الروحية، أي تقوم على أسس مدعمة ومؤيدة بالتجارب العلمية المخبرية، مبينا أن اليقين لا يتحقق إلا في العلوم الوضعية التفسيرية البعيد عن كل نظرة فلسفية غائية.

إلا أن "برغسون" كان له نظرة مخالفة، لأنه ربط أسباب حدوث الظواهر الحيوية بسبب له طابعا نفسيا روحانيا، وبالتحديد ما يعرف بالدفعة الحيوية، (قوة الحياة)، شيئا مختلفا عما هو في مدرسة مونبلييه، متجاوزا بذلك تلك النظرة التجريبية السكونية على مستوى الحياة[1]. وبهذا فالعلم الوضعي ليس موضوعه الكشف عن كنه الأشياء وحقيقتها، حيث يقول:" إذا كانت المادة الحية لا تخضع لتأثيرنا إلا بالقدر الذي نستطيع فيه أن نعالجها بأساليب الفيزياء والكيمياء، ...فلا يمكننا إذن أن ندرس التنظيم العضوي دراسة علمية إلا إذا شبهنا الجسم العضوي بالآلة أولا...تلك هي وجهة نظر العلم، أما وجهة نظر الفلسفة فمختلفة تماما"[2].

لهذا يرى برغسون أننا لو اتبعنا وجهة نظر الآليون والغائيون نجد أن النتيجة عندهم ما هي إلا تطابق بين العلة والمعلول، أي كل النتيجة تفسر بكل العلة، وهذا غير مقبول على مستوى الحياة لأن أجزاء العلة لا تطابق أبدا أجزاء المعلول:" لأن الحياة هي قبل كل شيء نزوع إلى التأثير في المادة الجامدة، وهذا التأثير غير محدد مسبقا، ومن أجل ذلك كان التنبؤ بالصور المختلفة التي تخرجها الحياة خلال تطورها غير ممكن ويتصف هذا التأثير بصفة الجواز والإمكان ويتضمن عنصرا ضئيلا من الاختبار يفترض التطور السابق لعدة أفعال ممكنة[3].

كما أن العلم الوضعي هو نتاج عقلي محض، لأن مجال العقل هو المادة غير العضوية، وكلكما فكر في المادة تفكيرا ميكانيكيا زادت نزاعاته، فالعقل عند تناوله للحي يقوم بدراسته كما تدرس المادة الجامدة، ويطبق عليه الصور العقلية التي طبقها على الجماد، وينقل إليه ما كان سببا في نجاحه، حيث يقول:" هذا التفكير الهندسي يزداد وضوحا بازدياد توغل العقل في صميم المادة الجامدة، لأن العقل متفق مع المادة..."[4].

3. الميتافيزيقا التجريبية عند برغسون:

لقد حاول برغسون من خلال نظرته الإبستيمية، إعادة النظر في طبيعة العلاقة بين الفلسفة والعلم، وهو ما تجلى في نقده للنظرة الآلية الاختزالية التي كرستها العقلانية الحديثة، لأن ترك الفلسفة المجال للعلم من أجل دراسة جميع الظواهر، من شأنه أن يؤدي الى تكريس النظرة الميكانيكية القبلية الخالية من التأمل والشعور، والخاضعة إلى غايات مادية نفعية محضة، وهذا من شأنه أن لا يضيف للعلم شيئا.

في ذات السياق نجد أن ما قدمه "برغسون" قد أحدث وصلة بين العلم بطابعه العملي والفلسفة بنظرتها الحيوية الميتافيزيقية، وذلك بتحديد طبيعة الدراسات العلمية وحقل إشتغالها ومقولاتها المناسبة، إلى جانب أنه قد حدد طبيعة الدراسات الميتافيزيقية التي هي أهل لمعالجة مسائل الحياة، ليجعل من الميتافيزيقا علما تجريبيا قادرا على التعامل مع المشكلات الكبرى للفلسفة على أساس

Paris, p86.

[1] يمنى طريف الخولي، فلسفة العلم من الحتمية الى اللاحتمية، دار قباء للطباعة والنشر، القاهرة، 2001، ص210.

[2] هـ. برغسون، التطور المبدع، ص89.

[3] هـ. برغسون، التطور المبدع، ص91.

[4]H. Bergson, pensée et mouvant, H. Bergson, énergie spirituelle, essai et conférences, P.U.F, paris, 1940, p18 .

الحقائق العلمية، وفي هذا السياق يؤكد "برنار أندريو" حسب ما أشار إليه "كلود ديبرو" في كتابه (الفلسفة العصبية) Neurophilosophie: " نتذكر أن برغسون أكد في (الفكر والواقع المتحرك)، أن العلم والميتافيزيقا سيختلفان في الموضوع والطريقة، ولكنهما سيتواصلان في التجربة"[1]. وقد تجلى بوضوح إعتماده المستمر على العلم في كتابه:(منبعا الأخلاق والدين)، من خلال العلوم الإنسانية والإجتماعية، وتحديدا علم الإجتماع والأثنولوجيا وعلم الأديان، وعلم الاحياء من خلال كتاب: (التطور المبدع)[2]. ويتجلى ذلك في:

أ. الديمومة والحياة وأطروحة الإستمرارية في تطور الكائن الحي:

الجدير بالذكر أن برغسون قد أصر على ضرورة الربط بين الفلسفة والعلم، عن طريق إجراء بحوث متخصصة تسعى للوصول إلى حقائق يقينية جديدة، سواء تقوم بدور تصحيحي لما هو علمي أو تأكيد ما هو فلسفي، وهو ما يظهر على مستوى بحوثه الفلسفية التي تقر أن التفكير في الديمومة والحياة لا يمكن فصله عن سيرورة التطور العلمي، لأن الجسم الحي له خصائص تتضح في الديمومة والتغير، النضج والخلق، النمو والتعديل مستمر. حيث يدرج "برغسون" التطور داخل الديمومة، لأنها إختراع متواصل ومتجدد للصور، ومن أمثلة ذلك: ظاهرة الشيخوخة التي من خلالها يتضح تطور الكائن الحي وتغيره المستمر في الشكل، وهذا ما يسمح لنا بالقول أنه لا يمكن أن نقف على حقيقة الحياة وتطورها إلا نظرنا إليها نظرة زمانية، حيث يقول "برغسون": "أن للكبر تفسيرا ميكانيكيا متعلقا بظواهر التحطم العضوي، كتفسير ما نلاحظه من حوادث التصلب وما نسجله من آثار التجمع التدريجي للمواد الباقية في البدن، والتضخم المتزايد للبرزتوبلازما في الخلية، إلا أن هناك وراء هذه النتائج الظاهرة سببا عميقا، وهو أن تطور الكائن الحي كتطور الجنين يتضمن تسجيلا متصلا للديمومة، وبقاء للماضي في الحاضر، كما يتضمن بالتالي ذاكرة عضوية mémoire organique على الأقل"[3].

وهذا يعني أن حقيقة الحياة عنده متجددة، وبالتالي فإن الماضي رغم أنه أساس التطور، إلا أنه لا يتكرر، ومنه فإن طبيعة الحياة عنده لها تاريخ أي زمان ماض تستند إليه في فهم حاضرها والتعايش معه والإطلالة على المستقبل الوشيك، وهذا بالضبط ما سمح للفيلسوف الروحاني من خلال الديمومة بتأكيد استمرارية الحياة والتغير، وفي نفس الوقت الحفاظ على الماضي في الحاضر، لأن حاضر الكائن الحي يحتوي على كل ماضيه (وراثته ومكتسباته) كتجمع لتاريخ طويل جدا، إلا أن هذا الماضي لا يمكن صبه كما هو في الحاضر، بل نستعمل منه بوعي ما يمكن أن يخدم الحاضر والمستقبل، وهنا تظهر النزعة العملية البراغماتية للفيلسوف[4].

كما أن ما يمكن إقراره من مضمون فكرة الديمومة حسب ما صرح به "هيزاشي موتسو" Hisachi Matsui من خلال مقاله: "الفردانية البيولوجية عند "برغسون" l'individualité biologique chez Bergson ، أنه من خلال تحليل

---

[1] Bernard Andrieu, bergson contre la neurophilosophie -a le bergsonisme de (1889-1914), sous lac direction de jean-louis backes, publication de l'université francois- rabeais tours, 1996, p122.

[2] Arnaud Bouaniche, Bergson et la causalité de l'exemple à la lumière des sciences sociales et biologiques, charisme, imitation, émotion, a Bergson ou la science, Dossier coordonné par Stéphanie Favreau, Publication décembre 2013, pp90-91.

[3] H. Bergson, l'évolution créatrice, pp 31-32.

[4] Hisachi Matsui, l'individualité biologique chez Bergson, publie a Bergson ou la science, dossier coordonné par Stéphanie Favreau, publication, 2013, p23.

ظاهرة الوراثة نجد ما يدل فيها على الاستمرارية، على الرغم من أن برغسون لا يتفق في ذلك الوقت على ما ينتقل وراثيا، إلا أننا نجد لديه تعاطف خاص مع نظرية "أوغست وايزمان" عن استمرارية البلازما الجرثومية، الذي يرى في الوراثة ظاهرة تشير إلى إستمرارية الحياة[1]، ومن هنا يكتشف الفيلسوف في الوراثة خيطا تنتقل خلاله الديمومة، حيث يقول برغسون في هذا السياق:" أنه كلما إزداد إنطباع آثار الديمومة من غير أن تلجه، ويزداد هذا البرهان قوة عندما ينصب على تطور الحياة التام من أحط أصولها إلى أعلى صورها الحاضرة، ذلك لأن هذا التطور يؤلف تاريخا واحدا لا ينقسم، ولأن المادة الحية وهي الحاملة للتطور تتصف بالوحدة والإتصال l'unité et la continuité"[2].

وهكذا يعيد "برغسون" صياغة أطروحته عن الحياة بشكل عام كونها تظهر كتيار ينتقل من جرثومة إلى جرثومة عبر كائن حي متطور، وهذا ما يبرز لنا دور الوراثة في الحفاظ على ماض الكائن الحي واستمراره في الحاضر، عن طريق نقل الصفات الوراثية من جيل إلى أخر وبنسب متفاوتة، وبالتالي فالبرنامج الوراثي الموجود في الأصل لا يتغير إلا في حالات استثنائية تتجلى من خلال ظهور طفرات وراثية، وفي هذا أقر "أوليفي بيرو" أن برجسون قد أشار في كتابه: (التطور الإبداعي) أن جميع الكائنات الحية تتميز بديموتها الخاصة، حيث تشير ديمومة الحياة إلى نوع من البرمجة المدرجة في الكائن الحي.

خلاصة القول أن برغسون قد حاول تأكيد أن الديمومة كفكرة ميتافيزيقية تجد لها مكانا على مستوى العلم، وهو ما يمكن أن نلمسه على مستوى توريث الصفات (الوراثة) التي من خلالها يؤكد إستمرارية الكائن وتطوره.

ب . من علم الإجتماع إلى نظرية الخلايا العصبية المرآتية:

بما أن برغسون يرى أن بنية العضوية الحية في تكاملها تشبه في تركيبها بنية المجتمع، فإن هذا ما سمح له بتأكيد أن الإجتماعي ثاو في أعماق الحيوي، لهذا نجد أن الأطروحات البرغسونية تجد لها اليوم طريقا للتعبير عنها بالبيانات العلمية المعاصرة، وهو ما أراد الوصول إليه، حيث يقول في هذا الصدد الفرنسي "أوليفي بيرو": "تكمن صعوبة المحايثة في برغسون أنه مضطر إلى التمسك بالتجربة والسعي باستمرار للربط بين التجربة بالمعنى النفسي وربما الروحاني، والخبرة بالمعنى العلمي"[3]. مما يجعل كما يؤكد "أوليفي بيرو" من برغسون وإلى جانبه "أوتيلار دي شاردان" Teilhard dechardin مثالا للمفكرين الذين أعادوا إحياء المعرفة العلمية والمعرفة الفلسفية والروحانيات ووجهات النظر الصوفية في مكانهم الصحيح[4]، وهو ما يتجلى في نظرية الخلايا العصبية المرآتية la théorie de neurones miroires التي تم إكتشافها في التسعينات، حيث نجدها على مفترق طرق علم الأعصاب والعلوم الاجتماعية، وكذا من خلال مسألة التقليد التي سيشاركها برغسون جزئيا مع علم إجتماع "غابريال تارد".

ما يؤكد علاقة الفكر البرغسوني بالعلوم الإجتماعية السائدة في عصره، وتحديدا فكر السوسيولوجي الفرنسي غابريال تارد Gabriel Tarde (1843-1904) الذي تبنى سريا مفهومه للتقليد من أجل شرح طبيعة العملية التي تقود بها الشخصيات الأخلاقية العظيمية رجالا آخرين من أجل إتباعهم[5]. وهذا يعني أن التغيير الذي يحدث في التاريخ لا يمكن أن يحدث

[1] Idem, p24.

[2] H. Bergson, l'évolution créatrice, p53.

[3] Oilvier Perru, Epistémologie et valeurs – actuliser la démarche de bergson pour faire croitre l'etre humain, 2008, p8.

[4] Idem, p15.

[5] Arnaud Bouaniche, Bergson et la causalité de l'exemple à la lumière des sciences sociales et

حسب "تارد" وفق عملية اجتماعية، لأن أصلها هو الإبداع الفردي، وهي كما يقر علاقة المقلدين بواحد أو أكثر من المخترعين الذين يعملون كنماذج. وقد اتضحت هذه الفكرة عند "برغسون" في كتابه: (منبعا الاخلاق والدين) في إعتباره أن للقديسين مقلدون يكونون بمثابة القانون الكلي الذي يؤسس الأخلاق[1]، إنطلاقا من تقليدهم المشترك للنموذج، وهنا يكون قريبا من تارد، ولهذا يقر "برغسون" في خطابه عن "تارد" أن التقليد هو القانون الحقيقي والعالمي في عالم الأرواح مثل الجاذبية في عالم الأجسام، ومنه فإن التقليد في مجال الروح هو مبدأ يعمل حقا في الكون ويشرح المجتمعات عن طريق التكرار، مما يجعل من الممكن في كل مرة معرفة الحقيقة الإجتماعية[2].

وهذا لا يختلف عما هو موجود عند "ماكس فيبر(1864-1920)Max Weber في حديثه عن السببية النموذجية Exemplaire Causalité في التاريخ التي ترجع في أصولها إلى الكتابات البرغسونية، إنطلاقا من ربط "برغسون" قوة التحول والتغير في التاريخ ببعض الأفراد الإستثنائيين ذوي الشخصية والقيمة النموذجية، فهم بمثابة المدربون الأخيار للإنسانية، فإنه دون دراية منه سيجد هذه الفكرة على مستوى العلوم الإجتماعية في نظرية " فيبر"، تحت اسم الكاريزما Charisme، وهي صفة إستثنائية لشخصية تتمتع بقوى خارقة يتعدر على الانسان العادي الوصول إليها، وهو ما يمكن أن نجده في قول "أرنود بوانيش": "أن برغسون وفيبر يرون في هيبة الأفراد المرسلين الذين يحملون قوة إبداعية تكون نقطة إنطلاقها في كل مرة دعوة قادرة على إحداث ثورة في الرجال من الداخل، وفقا لنمط من الإلتصاق غير قابل للإختزال تماما، للإلتزام[3] الضمني في الطاعة غير الشخصية للتقاليد أو المؤسسات أو القوانين"[4].

وقد أصر برغسون على أن التغير الذي يحدث داخل المجتمع، ويتجسد في أخلاق جديدة (الأخلاق المفتوحة) لا تتشكل إلا من خلال الأشكال المعتادة في النظام الإجتماعي، حيث يؤكد تماما مثل عالم الإجتماع على الحاجة إلى الهيبة للتسلل إلى الشكل الدائم للحياة الإجتماعية وفقا للعملية اليومية والروتينية، بهدف ممارسة التعبئة الإجتماعية والجذب العاطفي، كما هو الحال مع "فيبر"، ليصل إلى أن المسائل الإجتماعية من الممكن علاجها من خلال منح الحدث الصوفي أو الكاريزمي مدة معينة، وهو ما يرقى

---

biologiques: charisme, imitation, émotion, p99.

[1] الأخلاق: يميز برغسون بين نوعين من الأخلاق: أخلاقا مغلقة Morale Close تقابل الغريزة الحيوانية، وهي نظام من العادات التي تأخذ شكل الإلزام والإلتزام، هدفها الحفاظ على تماسك المجتمع، وأخلاقا مفتوحة Morale Ouverte تتجاوز ما هو مفروض نحو الإنسانية جمعاء، كالإخلاص، الكرم، الإحترام...إلخ[1].(Ibid, p91)

[2] Idem, p100.

[3] الإلتزام: الإلتزام الأخلاقي له جذور بيولوجية، فهو كما يقول أوليفي بيرو :" يأتي من العلاقة وبشكل أدق من المجتمع نفسه...لأن المرء يمر عبر إنتقالات غير محسوسة من العلاقات بين الخلايا في الكائن الحي إلى العلاقات بين الأفراد في المجتمع".

(Olivier Moulin, Bergson, une pensée de la relation, Ecole Normale Superieure, Paris, 2015, p 255).

فقد تم التأكيد بطريقة صريحة من خلال ملاحظة كتبها "برغسون" في هامش قراءته لعمل الثيولوجي الفرنسي "ألفريد لويس"Alfred Loisy (1857-1940): " أن الإلتزام الأخلاقي الذي يأخذ شكل الواجبات التي يفرضها المجتمع في نظري يجب أن يكون له جدوره في علم الاحياء، ثم قامت بختم شكلها على شيء أكثر من بيولوجي وأكثر من إجتماعي".

(Olivier Perru, Bergson entre création et évolution, conférance paper, université de lyon1, mars, 2008, p8).

[4] Arnaud Bouaniche, Bergson et la causalité de l'exemple à la lumière des sciences sociales et biologiques, charisme, imitation, émotion, p96.

إلى القول أن العنصر الكاريزمي أو الصوفي لا يمكن أن يستمر بعد ظهوره، إذا لم يدخل في الحياة اليومية من خلال التقاليد أو القانون. ومثال ذلك أن الدعوة التي تمارس بهدف التغيير تكمن فاعليتها في القدرة على تسلل إلى أشكال مؤسسية أو قانونية ممكنة من خلال تزويدها بقناة إنتشار مصدرها دائما هو فرد إستثنائي[1].

ومن هنا نجد بأن برغسون قد ربط التقليد بالإختراع ، لأن المقلد ينطلق من تقليد النموذج، ولهذا نجده في مسألة التقدم الإجتماعي يرفض أن يكون التحول نتيجة تلقائية، لأنه نتيجة تأثير شخص ما يقتنع به الآخر، فالفرد هو الذي يغير المجتمع.

كما أن ما يجمع "تارد" وبرغسون ويقرب بينهما في مسألة التقليد هو نفيه للسببية الآلية في التاريخ، لأنه لا يمكن تحديدها بدقة،" فالسببية بدقة في نظره هي التي تعمل في المجتمعات البشرية، حيث يخترع الفرد وحيث يقبله الأفراد، ولا يمكن إختزالها في أي نوع من أنواع السببية التي وصفها الفيزيائيون والميتافيزيقيون، وهو ما يعرف بالتقليد الذي هو عمل فريد من نوعه يتم ممارسته من عقل إلى عقل"[2]. ومعنى ذلك أن برغسون مدرك تماما للقضايا المعرفية الكامنة وراء مسألة تأثير الشخصيات المثالية من خلال قوة دعوتهم أو جذبهم التي لها طبيعة روحانية، أي أنها لا تنبع من سببية ميكانيكية causalité mécanique، ومنه فإن المقابلة بين وجهات نظر برغسون وتارد من خلال موضوعات سببية المثال la causalité de l'exemple والتقليد لها فائدة، بحيث من المحتمل أن ينفتح تقارب أطروحات برغسون مع نظرية البيولوجيا العصبية المعاصرة القادرة على إلقاء ضوء غير متوقع عليه.

وإنطلاقا من التعريف الذي نجده عند "تارد" كما ورد عند "أرنود بوانيش": " بأنه عمل عن بعد لعقل بعقل آخر، وهو عمل يتكون من إستنساخ شبه فوتوغرافي لصورة دماغية بواسطة لوحة حساسة لدماغ آخر"[3]. أي أنه قد ربط بين الدماغ والتقليد، الأمر الذي يجعل من هذه الصياغة قريبة من النظرية الحديثة المعروفة بنظرية الخلايا العصبية المرآتية، التي لها تداعيات في المفهوم البرغسوني للأخلاق المفتوحة.

وقد أقر "أرنود لوانيش" أن البحوث التي أجريب عام 1996 بفضل الطبيب والبيولوجي الإيطالي "جاكومو ريزولاتي" Giacomo Rizzolatti (1973-؟) الذي تعود إليه الكثير من الإكتشافات في علم الأعصاب التكاملي neuroscience intégrative أنه قد تم إثبات أن نشاطا معينا من الدماغ يدعى المرآة . في القرود ثم البشر . لها نفس المناطق الدماغية التي يتم تنشيطها في الشخص الذي يقوم بعمل معين، وفي الشخص الذي يراقب أداءه ليصلوا إلى خلاصة مفادها: "أن فهم أفعال الآخرين هو فوق كل شيء حركي، ومن المرجح أن يكون لمثل هذا الإكتشاف تداعيات عملية ونظرية على عدد كبير من المجالات، لكن مجال التطبيق المحير له هو بلا شك مجال فهم الذاتية والإجتماعية، بمعنى أنه يوضح تشابكا حقيقيا بين الأفعال والنوايا الذي ينتج مساحة من الأفعال المشتركة، يظهر من خلالها كل فعل وكل سلسلة من الأفعال، أعمالنا وتلك الخاصة بالأخرين...مفهومة على الفور"[4]. ومنه فإن عملية التعاطف الاستثنائية هي عملية إنفتاح على الآخر، لأنه يمكنني من خلال المشاركة الذاتية العميقة مع شخص آخر الفهم العفوي والمباشر للغرض من أفعالنا، الأمر الذي يعفينا من الحاجة الى السؤال[5].

---

[1] Ibid, p98.

[2] H. Bergson, écrits philosophiques, Paris, Puf, coll. « Quadrige », 2011, p378.

[3] Arnaud Bouaniche, Bergson et la causalité de l'exemple à la lumière des sciences sociales et biologiques, charisme, imitation, émotion, p102.

[4] Ibid, p103.

[5] Olivier Moulin, Bergson, une pensée de la relation, p 256.

وهنا نجد أن نظرية الخلايا العصبية المرآتية تسلط الضوء على مشكلة سببية المثال la causalité de l'example تماما مثل مناقشة برغسون لأخلاقيات الدعوة، حيث سعى إلى شرح ظاهرة الصدى أو الرنين l'écho ou de résonance التي يثيرها سلوك شخص أخر فينا، لأن هذا في واقع الأمر عنده هو لغز الرجل العظيم l'énigme du grande l'homme الذي يتكلم هناك في أعماق معظم الرجال شيء يردده بشكل غير مدرك، وبالتالي كما يقول أرنود بوانيش: "أن ربط التقليد بالدماغ، أي بالجسد سيكون متوافقا مع النظرة البرغسونية الذي يختزل الأخلاق بنوعيها فيما هو حيوي بيولوجي"[1]، وهنا يظهر الطابع العلمي للحياة عند برغسون والتي تنتمي إليها البيولوجيا العصبية أيضا، والتي إكتشفها بنفسه في عمق عمله، لا سيما في (المادة والذاكرة)، وكذا في محاضراته عام 1911، الروح والجسد، حيث يتم هناك بعث السؤال الدقيق عن منطقة بروكا Brocca الشهيرة التي هي بالتحديد المنطقة التي توجد بها الخلايا العصبية المرآتية، ومنه فالذي يخرج برغسون من مشكلته هو أن يوسع حركة مفاهيمه ويربطها بخطوط الحقائق الجديدة المستعارة من مجال الفيزيولوجيا العصبية للدماغ la neurophysiologique du cerveau الذي يتجلى في كتاب: (المادة والذاكرة) ومقال: (العقل والفكر) في مسألة العلاقة بين الفعل النفسي وركائزه الدماغية.

من هذا المنطلق نجد أن برغسون قد حاول أن يجعل من الميتافيزيقا تجريبية، أي في إتصال دائم مع العلوم، وهو ما أوضحه "دولوز" من خلال قوله:" أن العودة إلى برغسون لن تكون منطقية له، إلا إذا إستأنف محاولته اليوم فيما يتعلق بتحولات الحياة والمجتمع بالتزامن مع تحولات العلم، فإن ذلك يعود مرة آخرى إلى التطورات الحاصلة في علم الأحياء العصبي الجزيئي المعاصر"[2].

في الواقع نجد أن الفكرة الأساسية لنظرية الخلايا العصبية المرآتية في الحرف la lettre التي وفقا لها يتم فهم نوايا الآخرين، وهي نقطة حاسمة تسمح لنا بفهم الآلية التي نتبع بها الرجال العظماء، ويقدم برغسون شرح ذلك بما يتعلق بالعاطفة الموسيقية، فعند سماعنا لها يبدو لنا أننا لا نرغب في أي شيء أخر غير ما تقترحه لنا الموسيقى، وهي طبيعية كيفية نتصرف بها، لأنه عندما تبكي الموسيقى فنحن نحزن، وهو حال كل البشرية:" وهذا يعني شيء قريب ما تقترحه نظرية االخلايا العصبية المرآتية، ليست الموسيقى أو الموسيقي هو الذي يقدم الشعور بالحزن حتى أترجمه بعد ذلك إلى دموع، بمعنى أن الفهم يتكون من التأثير، وهو نفس الشيء في الأخلاق، حيث يقوم الأفراد المثاليون بإحضارنا إلى هذه الموسيقى معهم حتى نترجمها إلى حركة، لأنه لم يعد هناك فرق بين الرؤية والسمع والفهم والرغبة، بل هناك حدس أو تعاطف كما اصطلح عليه برغسون، أو ما يعرف بالتخاطر[3]، télépathie وهو معرفة الشيء بشكل بديهي والدخول في علاقة ذاتية معه، وتعتبر بالمفهوم البرغسوني عبارة عن تأثير وعي عن آخر وتواصل الوعي عند أفراد كثيرين دون وسيط مرئي. ، حيث يقول برغسون:" رغم إثبات وجود ألاف الرؤى الخاطئة، ورغم إنعدام وجود الهلوسات

[1] Arnaud Bouaniche, Bergson et la causalité de l'exemple à la lumière des sciences sociales et biologiques, charisme, imitation, émotion, p 104.

[2] Ibid, p104.

[3] التخاطر télépathie وهو اتصال مباشر بين عقلين دون إستخدام أي وسيلة مادية، ولا يرتبط حدوثه بالمسافة الحسية، وهو مصطلح فرنسي الأصل معناه الرؤية الواضحة، وهو إدراك نفسي لجانب من جوانب البيئة الخارجية دون التقيد بالنموذج البصري للإدراك. (صلاح فليفل الجابري، فلسفة العقل، التكامل العلمي الميتافيزيقي . دار الفارابي، 2012، ص 105).

الأخرى الثابتة الحقيقية....فإني أعتبر كأمر ثابت وبشكل دقيق ونهائي حقيقة التخاطر، أو بشكل أعم إمكانية مشاهدة أشياء واحد[1]اث تعجز حواسنا عن إدراكها..."[2].

كما يؤكد الفيلسوف الفرنسي "دافيد لابوجاد" David Lapoujade (1964-؟) أن التعاطف يطلق النية الروحية الصحيحة لما هو حيوي، حيث أنه لا يقع التعاطف بين موضوعين، لأنه حركة ذاتية زمانية عميقة لا تقوم على ما لدى الشخصين من قواسم حسية مشتركة، بل تتم ببناء هذه القواسم عن طريق التعاطف[3]، الذي يرتبط بأصول بيولوجية غريزية الذي نقف من خلاله على حقيقة الحياة، حيث يقول "برغسون": "إن الغريزة تعاطف L'instinct est sympathie، ولو استطاع هذا التعاطف أن يوسع موضوعه، وأن يتأمل ذاته لأعطانا مفتاح العملية الحيوية..."[4]. وهذا ما سمح "لأرنود بوانيش" تبعا لمقاربته من خلال محاولة فهم الفلسفة الحيوية البرغسونية التأكيد على وجود هذا اللقاء الافتراضي بين برغسون ونظرية الخلايا العصبية المرآتية"[5]. وهذه الحقيقة البيولوجية هي ما كان قد أقره برغسون في كتاب الطاقة الروحية:" هناك نقطة لا جدال فيها، وهي أنه إذا كانت التخاطر حقيقة، فهي طبيعية، وأننا يوم نعرف ظروفها فلن يكون من الضروري بالنسبة إلينا...أن ننتظر مجيء شبح حي"[6].

الواضح أن ما سعى إليه برغسون عام 1922 من تقديم فهم تناظري للحدس، لأنه من أجل فهم معنى الجملة يقوم بقراءتها بصوت عال وتأديتها بطريقة ديناميكية متسلسلة، وهو ما يعني أن فهم فكر ما يحتاج أن يضع المرء نفسه في زمانية ذلك الموقف، وهذا هو عمل الشخصيات العظيمة الجذابة، الذين يدعون الأفراد إلى مدينتهم و فكرهم الاستثنائي، فعندئذ كما يقول أرنود بوانيش: "يمكننا بعد ذلك أن نتخيل أن "المدينة الإلهية" التي يتحدث عنها برجسون ستبدو تماما مثل مسح (TEP) Tomographie par émission de positons . التصوير المقطعي بالإصدار البوزيتروني . واسع النطاق للمجتمع المثالي الذي يجمع بين الشخصيات الأخلاقية العظيمة وأتباعهم"[7]. وهو نفس ما ورد في قول "أوليفي مولان" olivier moulin : " أن العلاقات الوحيدة (العاطفية والنفعية) التي سيكونون قادرين على الحفاظ عليها لا يمكن إلا أن تكون العلاقات بين الأفراد المتميزين". حيث يدخل فيها من خلال شعور قوي يقابل من خلال التشريب Imprégnation[8].

وما يشهد على ذلك هي الدراسات المعاصرة التي أجراها بعض العلماء في "المعهد الهولندي للعلوم العصبية" على الفئران ليصلوا إلى وجود منطقة في الدماغ تسمى القشرة الحزامية الأمامية Cortex cingulaire antérieur التي تكون مسؤولة عن تشكيل العواطف مع الأخرين، فعند رؤية إنسانا يتعذب مثلا، تستجيب هذه المنطقة وتنشط، وهو ما أكدته تجاربهم على

[1] H.Bergson, l'énergie spirituelle, H. Bergson, énergie spirituelle, essai et conférences, P.U.F, paris, 1940.

[2] Ibid, p78.

[3] Olivier Moulin, Bergson, une pensée de la relation, p250.

[4] H. Bergson, l'évolution créatrice, p217.

[5] Arnaud Bouaniche, Bergson et la causalité de l'exemple à la lumière des sciences sociales et biologiques: charisme, imitation, émotion, p 105.

[6] H. Bergson, l'énergie spirituelle, p73.

[7] Idem, p106.

[8] Olivier Moulin, bergson, une pensée de la relation, p248.

الفئران بوجود خلايا تسمى "بالخلايا العصبية المرآتية"، هي المسؤولة عن الشعور بالألم والمعاناة تبعا لمعاناة الأخرين (مبدأ المشاركة)[1].

ومنه فإننا نجد أثر للدراسات البرغسونية في الفكر الفلسفي المعاصر، وتحديدا في الفكر السوسيولوجي سواء عند "ماكس فيبر" من خلال السببية النموذجية أو عند غابريال تارد من خلال سببية المثال التي تظهر لنا تشابكا بين ما هو ذاتي وما هو سوسيولوجي، وهو ما يجد له صدى في نظرية الخلايا العصبية المرآتية، التي تبرز لنا علميا وجود منطقة مسؤولة على التعاطف والمشاركة الوجدانية عند الكائنات الحية، وهذا ما يكرس للربط بين البيولوجيا وعلم النفس وعلم الاجتماع.

خاتمة:

في الأخير نصل إلى أن الفلسفة البرغسونية من الناحية الإبستيمية قد تركت أثارا في الفكر الفلسفي الراهن، ويتجلى هذا الأثر في فاعلية الأفكار التي تجلت في إقراره أن العقل له حدود ومكانة في الحياة الإنسانية، أما مجال الحياة فهو يفلت من قبضته لأن الحياة قضية فلسفية وليست علمية. وهو ما منح دفعا قويا ومنطلقا لظهور مناهج جديدة تساعد في فهم الظواهر البيولوجية والسلوكات الإنسانية، الأمر الذي ساعد على إرجاع القيمة الحقة للفكر الفلسفي (إحياء الفلسفة) بعدما تأثرت بالتحولات الجديدة دون أن يكون لها أي دور إيجابي في توجيه ما يحدث في العالم، فظهرت ضرورة ملحة على إعادة بعث الروح الفلسفية المفقودة وتفعيل هذا الفكر في الواقع من أجل الكشف عما عجز عن تفكيكه العلم بمناهجه التجزيئية والعمل على توجيه ما هو تقنوي، ومنه وضع الفلسفة في مكانها المناسب إلى جانب العلم، ليؤسس بذلك ما أسماه بالميتافيزيقا التجريبية.

كما أن الهدف من هذه الدراسة كما هو التأكيد على تضامن نهج برجسون الفلسفي مع العلوم المعاصرة، ليحدث بذلك ثورة على الفكر السابق ليجعل قوة وقيمة الفلسفة من خلال قدرة الاتصال والانفتاح والارتباط بالواقع العلمي المتجدد، ومنه فإن قدرة الفعل الفلسفي على الانتشار والإضاءة لا يكون إلا بفضل العلم، وهذا بلا شك ما يعنيه "جيل دولوز" وهو أحد أكثر ورثة برجسون في القرن العشرين، عندما أكد أنه لا يوجد خلق في الفكر إلا بفضل المواجهات، أي بفضل التقاطعات الإبداعية بين المجالات، وهذا ما يمكننا من التحقق منه من خلال سلسلة من اللقاءات الفكرية لبرجسون مع "غابرييل تارد"، و "ماكس فيبر"، أو حتى ممكنا مع النظرية المعاصرة للخلايا العصبية المرآتية.

. قائمة المصادر والمراجع:

أولا. قائمة المصادر:

أ. بالعربية:

1. هـ. برغسون، التطور المبدع، ت: جميل صليبا، اللجنة اللبنانية لترجمة الروائع، بيروت، 1981.

ب . بالأجنبية:

1. H. Bergson, énergie spirituelle, essai et conférences, P.U.F, paris, 1940.
2. H. Bergson, l'Evolution créatrice, Quadrige, P.U.F, Paris, 1994.
3. H. Bergson, pensée et mouvant, Essai et conference, P.U.F, paris, 1934.
4. H.Bergson, écrits philosophiques, Paris, Puf, coll. « Quadrige », 1957.

[1] محمد منصور، الكشف عن خلايا التعاطف مع الأخرين، 16 أفريل2019، ص1.

ثانيا. قائمة المراجع:

أ. بالعربية:

1. أحمد أمين وزكي نجيب محمود: ***قصة الفلسفة اليونانية***، ط4، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة،1958..
2. أرسطو طاليس:***الطبيعة***، تحقيق عبد الرحمن بدوي، ج1، الدار القومية للطباعة والنشر، القاهرة، 1974.
3. جون لويس، مدخل الى الفلسفة، ت، أنور عبد المالك، دار الحقيقة، بيروت، 1978.
4. السيد نفادي:***العلم والنظرة إلى العالم***، الإسكندرية، 1994.
5. نجيب بلدي: ***نوابغ الفكر الغربي " ديكارت*** "، ط2، دار المعارف، مصر، 1968.
6. يمنى طريف الخولي، فلسفة العلم من الحتمية الى اللاحتمية، دار قباء للطباعة والنشر، القاهرة، 2001..
7. يوحنا قمير: ***أصول الفلسفة العربية***، ط2، منشورات المطبعة الكاثوليكية، بيروت، لبنان، 1967.

ب . بالأجنبية:

1. Arnaud Bouaniche, Bergson et la causalité de l'exemple à la lumière des sciences sociales et biologiques, charisme, imitation, émotion, a Bergson ou la science, Dossier coordonné par Stéphanie Favreau, Publication décembre 2013.
2. Bernard Andrieu, bergson contre la neurophilosophie -a le bergsonisme de (1889-1914), sous la direction de jean-louis backes, publication de l'université francois- rabeais tours, 1996.
3. C. Bernard, introduction à l'étude de la médecine expérimentale, 4éme edition, librairie de la grave, Paris.
4. G. Canguilhem, la connaissance de la vie, vrin, Paris, 1975.
5. Hisachi Matsui, l'individualité biologique chez Bergson, publie a Bergson ou la science, dossier coordonné par Stéphanie Favreau, publication, 2013.
6. Olivier Moulin, Bergson, une pensée de la relation, Ecole Normale Superieure, Paris, 2015,
7. Olivier Perru, Bergson entre création et évolution, conférance paper, université de lyon1, mars, 2008.
8. Oilvier Perru, Epistémologie et valeurs – actuliser la démarche de bergson pour faire croitre l'etre humain, 2008.

ثالثا. قائمة المعاجم والموسوعات:

أ. بالعربية:

1. أندري لالاند: ***موسوعة لالاند الفلسفية***، ج2، (H.Q) ط2، منشورات عويدات، بيروت، لبنان، 2001.
2. جميل صليبا، المعجم الفلسفي، ج1، ج2، دار الكتاب اللبناني، بيروت، لبنان، 1982.
3. فؤاد كامل وآخرون: ***الموسوعة الفلسفية المختصرة***، دار القلم بيروت،دار القلم، بيروت، لبنان.

ب . بالأجنبية:

1. Dictionnaire de l'éthique et de la philosophie morale, publié sous la direction de Monique canto-sperber, presses universitaires de France, paris, 1996.
2. Dictionnaire Hachette Encyclopédique, édition, 2001.
3. Encyclopédia philosophique universelle- les notions philosophiques dictionnaire, volume dirigé par: Sylvan Auroux, publier sous la direction: d'André Jacobs, tome1, 1er édition, presses universitaires de France, 1990,